القديمة المتوارثة»، التي هي عائلية، عشائرية، طائفية، مذهبية، الخ، التي تتغلب، في النهاية، على جميع «الاردية» الايديولوجية، سواء أليبرالية كانت أم اشتراكية. أي انه، حسب هذا الاستنتاج، ليس من المجدي البحث في الافكار والايديولوجيات، طالما ان العلة هي في تشقق المكونات الوراثية القديمة في مجتمع الشرق، التي تلعب الدور الحاسم في التشقق والانقسام الحاصلين في بنية هذه الحركة الى فروع وشلل، الخ. اما في شأن مفهوم «الطبقة» ذاته، فان الكاتب يرى ان هذا المفهوم ظل مفهوماً «غائماً» واقل تحديداً من «الطبقية» الغربية، المكتملة في مجتمعها الغربي الصناعي محددة الملامح والقسمات[٩].

الى هنا، تكتمل، تقريباً، كل عناصر الجواب الذي يفسر السؤال. فغياب التبلور الطبقي، بمفهومه الغربي، أي بقاء وديمومة «الجسم القديم»، يفتح المجال لسطيرة المكونات الوراثية. لكن الكاتب لا يفسر لنا اسباب بقاء هذا التبلور غير مكتمل، وما اذا كان من الممكن العثور على ابعاد ذات طبيعة اقتصادية ـ اجتماعية لهذه الصراعات والانقسامات، طالما ان ارجاع هذه الاسباب الى «مثالب اخلاقية» و «انانية»، هو امر مستبعد.

لكن، ربما في هذه المداخلة، التي يقدمها احد الباحثين الاسرائيليين، يمكن العثور على تفسير اوضح لهذه المشكلة التي تركها الكاتب بدون حل. يقول شلومو افنيري: «ان فرص اعادة تشكيل بنية المجتمع في آسيا، وانخراطه، بشكل نهائي، داخل المجتمع البرجوازي (أي في اطار النموذج الاوروبي)، وبالتالي بالاشتراكي لاحقاً، تزداد كلما اصبحت السيطرة الاوروبية على ذلك المجتمع مباشرة اكثر»[١٠]. غير ان الاستعمار الاوروبي، الذي تشكل سيطرته الحاسمة العامل الاهم في مفهوم افنيري لتطوير البنية، بدلاً من ان يحطم البنية الاجتماعية القديمة للمجتمع العربي (الجسم القديم)، لم يفعل سوى اعادة خلق النزعة العسكرية والتخلف. ولذلك، فان «المجتمعات العسكرية في الشرق الاوسط الحديث، هي الوريث المباشر للاتراك والسلاجقة والمماليك، من حيث القيم والدور الاجتماعي»[١١]. حيث «قدمت القوى الاوروبية التكنولوجيا العسكرية الحديثة، دون تثوير البنية الاجتماعية الاساسية الراكدة والمتخلفة»[١٢]. وهكذا، يخلص افنيري الى «ان الدول العربية، في مرحلة ما بعد الاستعمار، هي استمرارية للمجتمعات الاسلامية القديمة، المبنية على الحكم العسكري، ولا ترتبط ايديولوجيا القومية، والاشتراكية العربية، بعملية اعادة تنظيم القيم الاجتماعية، والبنية الاجتماعية»[١٣]. لماذا؟ «لأن السياسة والثقافة الاسلامية تشكلت على أيدي نخبة عسكرية، بينما اهتمت مجموعات الاقليات بالتجارة... مما منع ظهور طبقة وسطى، كعنصر رئيس في السياسة القومية»[١٤].

ان ما يقوله الباحث العربي حول استمرارية «الجسم القديم» وغياب الطبقة ـ النموذج الاوروبي ـ وبالتالي سيطرة التكوينات الوراثية وغلبتها على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية العربية، بلغة غامضة ومدورة، يوضحه افنيري ومدرسة الاستشراق التقليدي التي تشكل مرجعية افنيري الثقافية، بصورة اكثر وضوحاً. فالمجتمع الاسلامي، او مجتمعات الشرق الادنى لا فرق، تتألف، حسب هذا المنظور، من مجموعات اجتماعية ـ فئات ـ معزولة، او من «فسيفساء من القبائل والاقليات الدينية والمجموعات الاجتماعية والروابط»[١٥]، التي لم تستطع الرأسمالية (النموذج الاوروبي)، حسب مقولة كارل ماركس الشهيرة، ان تحطمها وان تعيد بناء العالم القديم على شاكلتها، او ـ حسب افنيري ـ دون ان تثوّر «البنية الاجتماعية الاساسية الراكدة والمتخلفة». ولذلك، فان السمة الجوهرية للحياة السياسية هي الصعود الاعتباطي والسريع، او الحركية الاجتماعية، لاولئك الافراد الذين «تعلموا فن المناورة، واستخدام النواحي غير البارزة للقوة، فتتسم الحياة السياسية، عامة، بالصراعات»[١٦].